اعترافات فتى العصر

لألفريد دى موسيه

بقلم الأستاذ فليكس فارس

الجزء الثالث

الفصل التاسع

وأرسلت لى مدام بيارسون فى المساء كتاباً موجهاً إلى ر . د . فى استراسبورغ ، وما مضت ثلاثة أسابيع حتى كنت قد قمت بالمهمة وعدت من سفرى . وما كنت انقطعت عن التفكير فيها أثناء غيابى فعلمت أن لا أمل لى فى نسيانها يوماً . غير أننى كنت مصمماً على الاحتفاظ بصمتى أمامها ، لأن ما أقدمت عليه من المجازفة وما تلاها من خطر فقدى لها وما تحملت من الآلام فى موقفى ، كل ذلك كان يصدنى عن التعرض مرة أخرى لهذه الأخطار ، وما كان احترامى لها ليدع مجالاً لارتيابى بإخلاصها ، وما خطر لى قط أن إقدامها على مبارحة البلاد كان تصنعاً ، ولذلك كنت على ثقة من أن أول كلمة غرام أتفوه بها ستكون سبباً لايصادها الباب فى وجهى

ولما لقيتها رأيتها شاحبة متغيرة وكانت بسمتها كأنها ترتمى ارتماء على شفتيها المتقعتين .

وقالت لى إنها كانت مريضة

ولم يدر بيننا أى حديث عما جرى . وكان يلوح لى أنها تتحاشى تناول ما وقع ، وما كنت أنا لأعود إلى البحث فيه . ومع ذلك فقد كان ما بيننا شئ من الاحتراس بالرغم من أننا عدنا إلى ما كنا تعودناه من علاقات الجوار . فكان فى عدم تقيدنا شئ من الكلفة . وكأننا كنا نسرُّ إلى نفسنا : «لقد كانت الحال على هذا المنوال من قبل فلنستمر عليه »

وكانت تمنحني ثقتها كأنها تعيد إليَّ حرمتي فأرى فى صنعها شيئا ترتاح نفسى إليه . غير أن أحاديثنا تولاها شئ من البرود لأن عينينا كانتا تتناجيان خلسة فلا يبقى وراء الحديث ما يتكلف الفكر اكتشافه . وقد كان كل منا يحاول من قبل أن ينفذ بحديثه ما يجول فى خاطر الآخر فأصبحنا ولا تقدير لكل منا يتجسس به ما تنطوى عليه الكلمات وما تضمره العواطف . وقد كانت تعاملنى بكل لطف فأحاذر لطفها ، وكنت أذهب متمشيا معها فى الحديقة ولكنني انقطعت عن مرافقتها إلى الخارج فلم يعد لنا أن نجتاز الغابات والوديان معاً . وعندما كنت أنفرد بها كانت تفتح البيانو وتنشد ؛ غير أن صوتها لم يعد يثير فى قلبي من الشباب ما يستخفه ليدفع بأنين كأنه هتفة الآمال .

ولما كنت أخرج من بيتها مودعاً كانت تمد يدها إلى ؛ وحين أقبض على أناملها أحس أن لا حياة فيها . فلقد كان فى ارتياحنا كثير من المجالدة ، وفى كلامنا كثير من التفكير ، ويسود كل ذلك كثير من الأسى المكبوت .

لقد كنا نشعر بأن ما بيننا ثالثاً هو حبي لها ، وما كنت لأبديه بأية إشارة منى ، غير أن وجهى كان ينم عنه . وفقدت مرحى وقوتى وما كان على خدى من نضارة العافية . وما مضى شهر علىَّ حتى تبدَّل حالى ولم يبق من شبه بيني وبين من كنته

غير أنى كنت لا أزال أذكر كرهي للعالم ونفوري من العودة إليه . فكنت أحاول جهدى أن أقنع مدام بيارسون بأنها تحسن صنعا بارجاعى إليها . وكنت أصور لها أحياناً ما مرّ من أيامى بأقتم الألوان ، ملمحاً لها بأنى سألجأ إلى عزلة خير منها الفناء إذا ما اضطررت يوماً إلى الافتراق عنها ؛ وكنت أقول إنني أكره المجتمع فيؤيد قولى ما كنت سردته لها تفصيلاً من وقائع حياتى . وكنت أحياناً أتظاهر بمرح كاذب لا يصدقه قلبي كأنى أريد أن تعلم أنها أنقذتنى من أفظع المصائب . وكنت كلما ذهبت لزيارتها لا أغفل عن تكرار شكرى لها لأتمكن بذلك من العودة إليها فى المساء وفى صباح اليوم التالى ، فكنت أقول إن جميع آمالى ومطامحى محصورة فى الحديقة الصغيرة التى تقطنين ، فليس لى أن أحيا إلا حيث الهواء الذى تستنشقين .

وما كانت آلامى لتعزب عن شعورها فأراها لا تستطيع مقاومة إشفاقها على ما أبدى من مجالدة وحزم ، فكانت كل حركاتها وسكناتها أمامى تنم عن لينها ، فإنها كانت تشهد العراك القائم بين جنبيّ فتبدو فخورة باطاعتى لها ؛ غير أن شحوب وجهي كان يثير فى قلبها ما انطوى عليه من إشفاق المرضات فكانت تبدو أمامى فى بعض الأحيان مضطربة إلى حد الدلال فتقول بلهجة مداعبة : — لن أكون هنا غداً . أو تعين يوماً تمنعنى الحضور فيه . وإذا كانت تراني مستغرقاً فى الحزن تتلطف قائلة : لا أعلم ؛ على كل حال تعال . أو تزيد فى رقتها وتذهب لتشيعنى حتى الحاجز فتزودنى بنظرة تترقرق العذوبة فى حزنها.

وكنت أقول لها : ثقى أن العناية قادتنى إليك ؛ ولو أنى ما عرفتك لكنت عدت إلى ضلالاتى . لقد أرسلت الله ملاك أنوار رفعنى من اللجة المظلمة فما رسالتك إلا سبيل الخير ، ومن يدرى إذا حكم علىّ بالابتعاد عنك إلى أية الهاوى تطرحنى أحزانى وما اختبرته من الحياة في أوائل صباى وما سيفعل بى تضجرى وملالى .

وكان لهذه الفكرة التى أعبر عنها باخلاص شديد التأثير على امرأة لها مثل هذه التقوى ومثل هذه الروح المضطرمة فى عقيدتها .

وكنت أستعد يوماً للذهاب إليها فاذا بالباب يقرع وبمركانسون يدخل علي وهو الكاهن الذي كنت رأيته من قبل فى حديقتها. فبادرنى باعتذارات أثقل من شخصيته عن إقدامه على زيارتى دون سابق معرفة . فقلت له إنى أعرفه وأعرف عمه كاهن القرية وسألته عما يريد .

فطفرت عليه الحيرة وبدأ يقلب عينيه يمينا وشمالاً ويداعب الأوراق الموجودة على الخوان أمامه كمن يفتش على ما سيقول ، وأخيراً وفق إلى القول إن مدام بيارسون مريضة وإنها كلفته أن يبلغنى عدم إمكانها مقابلتى فى ذلك اليوم .

فقلت : أمريضة هي ؟ وكيف ذلك وقد فارقتها أمس فى ساعة متأخرة وهي على أحسن حال .

وانحنى الكاهن مسلماً فاستوقفته قائلاً : هب أنها مريضة فهل من موجب لإرسال من يبلغنى ذلك ؟ وهل بيتها بعيد عنى لتقصد توفير العناء بوصولى إليه ؟

وبقى صامتاً وبقيت مستغرباً فقلت له أخيراً :

— لا بأس ! سأراها غداً فتطلعنى على جلية الأمر

وعاد إلى حيرته فقال إن مدام بيارسون قد عهدت إليه أيضاً بابلاغى أنها جد مريضة ولا يمكنها أن تستقبلنى إلى أسبوع .

وانحنى مسلماً وولى .

ولم يكن من ريب عندى فى أن وراء هذه الزيارة سراً . إن مدام بيارسون تريد ألا أقابلها لسبب لا أعرفه ، فهل كان مركانسون يقوم بهذه المهمة من تلقاء نفسه ؟

ومضى النهار وتبعه الليل فنهضت مبكراً وقصدت بيت مدام بيارسون فوجدت الخادمة أمام الباب ، وإذ استوضحتها الأمر قالت إن سيدتها مريضة وحاولت عبثاً أن أجرها إلى الاعتراف حتى ينفحها شيئاً من المال فلزمت الصمت ولم تبح بشىء .

وفى عودتى إلى القرية صادفت مركانسون على المتنزه وحوله تلامذة عمه فدعوته إلى كلمة أقولها له على انفراد ، ومشيت فتبعنى إلى الميدان ، وهنالك رأيتنى متردداً حائراً لا أعلم ما أقول له لأنتزع منه سره . وأخيراً قلت : أرجوك يا سيدى أن تعلن لى الحقيقة عما أخبرتنى به أمس : أهى مريضة أم إن هنالك أمراً آخر ؟ فأنت تعلم أن ليس فى هذه الجهات طبيب يعتمد ، وفوق ذلك فان لدى أسباباً أخرى لها أهميتها تدعونى إلى الوقوف على جلية الأمر

فصمد الرجل بوجهى لا يحول عما قاله أولاً ، وأضاف إلى ذلك قوله إنها هى دعته إليها وكلفته إبلاغى ما أعلنه لى . وكنت وصلت وإياه إلى ممر ضيق عند مدخل الشارع وضقت ذرعاً بهذا الرجل المتصلب فقبضت على ساعديه فجأة فذعر وقال : أتريد إرغامى بالقوة ؟

— لا ولكننى أريد أن تتكلم .

— إننى لا أخاف أحداً وقد قلت ما يجب أن أقوله .

— لقد قلت ما يجب لا ما تعلم . إن مدام بيارسون ليست مريضة .

— وكيف عرفت ذلك ؟

— عرفته من الخادمة . فماهو السبب ياترى فى إيصادها الباب دونى وفى إرسالك بمثل هذه المهمة إلى ؟ ورأى مركانسون أحد الفلاحين مارا بنا فناداه باسمه قائلا له : لى معك كلام فانتظر .

وتقدم الفلاح نحونا وكان ذلك ما يرجوه الكاهن لعلمه بأننى لن أتمادى فى الحديث أمام ثالث ؛ وهكذا اضطرنى إلى سحب قبضتى عن ساعده ولكننى دفعته بشدة حتى أنه تراجع فجأة واصطدم ظهره بشجرة وقته السقوط . فحرق الأرم وذهب دون أن يفوه بكلمة .

ومضى الأسبوع على وأنا على أحر من الجمر . أذهب كل يوم إلى باب مدام بيارسون فأراه موصداً بوجهى ، وتلقيت أخيراً منها كتاباً تقول فيه إن تكرر زياراتى لها قد أصبح موضوع قال وقيل فى البلد ، فهى لذلك ترجو أن أقلل من عدد هذه الزيارات . وكان كتابها مقصوراً على ذلك فهى لم تأت على ذكر مرضها ولا على ذكر مركانسون .

وكدت لا أصدق أن الكتاب منها لأول وهلة لما أعلمه من أخلاقها وعدم مبالاتها بكلا قال وقيل وترفعها عن إخضاع ضميرها لغيرها ، ولكننى اضطررت أخيراً إلى إرسال كتاب أقول لها فيه إننى لا أجد بداً من إجابة نداء قلبى والخضوع ، وما كانت عباراتى إلا لتنم عن مرارة لم يسعنى كتمانها

ولم أذهب لزيارتها فى اليوم الذى سمحت لى فيه بالقدوم اليها لأثبت لها أننى لم أخدع بخبر مرضها وما كنت لأعرف السبب الذى دعاها إلى اقصائى عنها ، فذهب بى الحزن كل مذهب حتى سئمت الحياة ، وخطر لى أن أتحرر منها فكنت أمضى طوال الأيام فى الغاب حتى مرت ذات يوم صدفة حيث كنت

فرأتني على أسوأ حال وما جسرت على طلب الايضاح منها إلا تلميحاً. فلم تجب بصراحة، وهكذا أكرهتني على ألا أحاول تناول الموضوع مرة أخرى.

وكنت أعد الأيام التي تفصلني عنها حتى إذا جاء ميعاد الزيارة هرعت إليها وأنا مصمم على الانطراح أمام قدميها لأشرح لها حالي وما وصلت إليه من اليأس آملا إثارة إشفاقها، ولكنني كنت أذكر ما فعلت أولا ويتمثل أمامي رحيلها وقسوتها فيستولي على الذعر وأحذر فقدها وكنت أفضل الموت على هذا البلاء.

وهكذا كان مقضياً على أن أتعذب ولا أتنفس بالشكوى فما طال بي الجفاء حتى تهدمت قواي، وكنت أحس بوهن ركبتي عن حملي إلى بيتها لأنني كنت أشعر بأن ليس فيه غير مايستدرف دمعي؛ وما عدت مرة من زيارتها إلا لأطلق عنان مدامعي كأنني أبارحها كيلا أراها بعد.

أما هي فكانت تخاطبني بلهجة لم أعهدها فيها من البرود فتسألني رأيي في مبارحتها البلاد ولا تتردد في أن تقول لي إنها أصبحت تشتهي الرحيل. فأقف واجماً أمام هذه المفاجأة وأنا أقرب إلى الموت مني إلى الحياة. وما كانت تعود لحظة إلى حالتها الطبيعية حتى أراها ترتد فجأة الى تصنع البرود القتال. وخانني الجلد يوماً فتساقطت دموعي أمامها وشكوت بالرغم مني فرأيت الاصفرار يعلو وجهها. ولما وقفت على بابها مودعاً قالت: إنني سأذهب غداً الى سان لوس «وهي قرية على مسافة غير بعيدة» وبما أنني أفضل الذهاب راكبة فاحضر غداً على فرسك لمرافقتي إذا لم يكن لديك ما يمنعك.

وحضرت في الميعاد المضروب مبكراً، وكنت قضيت الليل متقلباً على مهاد السرور ولكنني عندما خرجت من مسكني شعرت باستيلاء الحزن عليّ. وكنت لا أعلم ما تقصد هذه المرأة من اعادتها إليّ ما سلبتني إياه من معاملة، وأرى في عملها شيئاً من القسوة لأنها إذا كانت لا تزال على حالها ولا حب في قلبها فأية تسلية كانت تطلبها من تحدي مجالدتي وهي تعلم أنني أهواها.

وتسلطت هذه الفكرة على فبدلتني تبديلا، وما وضعت راحتي تحت رجلها لأساعدها على اعتلاء صهوة جوادها حتى شعرت بخفقان شديد في قلبي وما عرفت أكان هذا القلب يختلج شهوة أم غضباً. وكنت أقول في نفسي: «إذا كانت هذه المرأة أصيبت بدائي فلمَ هذا التجني؟ وإذا كانت سليمة فلمَ هذا الدلال؟»

وهكذا هم الرجال. ولاحظت هي لأول وهلة أنني أرمقها شزرا وأن في سيمائي تغيراً. وانتحيت الجهة الثانية من الطريق وسرت لا أنطق بكلمة. وكنا نقطع السهل فأراها هادئة تدير لحاظها نحوي من حين إلى آخر لتتأكد أنني ما أزال أتبعها. ولكننا ما بدأنا نصعد الجبل متوغلين بين الأشجار وما بدأت حوافر فرسينا تقرع الصخور حتى رأيتها ترتعش فجأة. وتوقفت حتى أصبحت على مقربة منها فانطلقت مسرعة وأنا أتبعها حتى وصلنا إلى المنحدر فاضطرت إلى تخفيف السير، وعندئذ اقتربت حتى حاذيتها وكنا كلانا مطرقين فشعرت بأن الزمن قد حان فقلت:

— هل أتعبتك شكواي يا بريجيت؟ وهل أزعجك مني أنني بعد أن عدت إلى مشاهدتك لا أرجع من مسكنك إلى مسكني مرة دون أن أسأل نفسي ما إذا كانت لم تزل بعيدة عن الموت؟ لقد قضيت شهرين وأنا أذوق الأمرين وأكتم ما أعانيه

من هذا الحب الذى يرتمي حشاشتى ويقتلنى ، وأنت ساهية كأنك لا تعلمين بحالى . إرفعى رأسك قليلاً وانظرى إلى . أفى حاجة أنت لأبثك ما ألقى من الأوصاب وما تفعل بى الليالى أقضيها باكياً على نفسي

لقد مررت يوماً فى هذا الغاب المروع فرأيت شقياً موجعاً أسند جبينه إلى راحتيه ؛ أفما نظرت إلى رشاش دمعه فوق هذه الأعشاب ؟ انظرى إلى وإلى هذه الجبال أفما خطر لك أننى أهواك وقد عرفت بتوليهي هذه الصخور وهذه الأرجاء المقفرة وكلها شهود غرامى .

لماذا أتيت بى أمام شهودى عليك ؟ أفما كفاك ما أتحمل من بلاء ؟

أيخونني الجلد الآن ؟ أفما ترين أننى ذهبت إلى أبعد مدى فى طاعتك ؟

إلى أى التجارب تعرضيننى ؟ بل أي تعذيب تعدينه لي على جناية لا أعرفها ؟ ماذا أتيت تفعلين هنا إذا كنت لا تحبيننى ؟

فصاحت : فلنذهب من هنا . أرجعنى من حيث أتيت .

فقبضت على زمام فرسها قائلا : لا لن نعود ، لأننى بحت بما أضمر ، فاذا رجعنا فقدتك إلى الأبد ؛ وهذا ما لا أجهله وأنا أعرف مقدماً ما ستقولينه لى عندما ندخل بيتك . لقد أردت ابتلاء صبرى وتحديت آلامي ولعلك قصدت بذلك إيلاء نفسك حق طردى . لقد أتعبك هذا العاشق الحزين ، يتحمل آلامه كاتماً أمره كارعاً حتى الثمالة كأس احتقارك . وكنت تعلمين أننى إذا ما انفردت بك أمام هذا الغاب فى هذه العزلة التى نشأ فيها غرامى وتما لن أتمكن من التغلب على نفسى ، فأردت أن تعرضى نفسك للاهانة . اصغي إلي يا سيدتى وليكن ما أقوله سببا لفقداني إياك . لقد كفانى غرامى دموعاً وآلاما وقد طال الأمد علىّ وأنا أكتم حبا جنونيا يرى أحشائى ، وقد بلغت بك القسوة . . .

ورأيتها تتحفز للوثوب من صهوة جوادها فتقدمت والتقيتها بذراعى ملصقاً شفتى بشفتيها . وعلا وجهها الاصفرار فأطبقت جفونها فسقط الزمام من يدها وارتمت على الأرض .

وصحت : يا لله ! إنها تحبنى

وكانت قد بادلتنى قبلتى فسارعت إلى رفعها عن المرج ففتحت عينيها ومشى الارتعاش فيها يهزها هزاً فدفعت يدي عنها وانهمرت دموعها فهبت تطلب الفرار .

وكنت لا أزال واقفاً جنب الطريق أنظر اليها وهى أجمل من الضحى وقد استندت إلى جذع شجرة وانحل شعرها متساقطاً على كتفيها ويداها ترتجفان وقد علا الاحمرار وجهها كأنه الأرجوان تلتمع عليه لآلئ الدموع .

وصاحت : لا تقترب منى . لا تتقدم خطوة واحدة نحوى .

فقلت : لا تخافى يا حبيبتى ! إذا كنت أسأت إليك فأنزلى بى عقابك . لقد تولانى ثائر الألم لحظة فافعلى بى ما تشائين ولك أن تذهبي الآن ، كما لك إرسالى إلى أية جهة تريدين ، فأنا أعرف الآن أنك تحبيننى يا بريجيت فأنت في هذا المكان تتمتعين بأمان لا يتمتع به الملوك فى قصورهم المنيعة .

ونظرت إلي عندئذ بعينيها الداميتين فرأيت سعادة الحياة تغمرنى ، فتقدمت إليها وجثوت أمامها

وما يحب الحب الجم من بوسعه أن يتذكر الكلمات التى أعلنت بها من بهوى أنها تهواه .

فليكس فارس